شواهد القبور

مرفت أمين

(ادفن مخاوفَكَ وتناولها بالنكهاتِ)

كان ذلك إعلان لإحدى محلات الحلويات الشهيرة في البلدة، وقد أثار جدلًا كبيرًا، فالجميع أصبح بانتظار اليوم الذي تحدد بعد أسبوع من إطلاق الإعلان لكي يعرفون ماهيته.

جاء اليوم المنتظر وتجمَّعت حشود كبيرة من الناس أمام المحل ودلفوا هناك بشوقٍ، وجدوا ثلاجة كبيرة مخبأة بلافتة إعلانية كبيرة وقد كُتِب عليها نفس عبارة الإعلان..

وبعد لحظات تمّ إسدال الستار عن تلك الثلاجة، فشهق الحضور لمّا رأوا تلك الثلاجة مليئة بقطع الجاتوه، ولكن ما أثار صدمتهم هو شكل تلك القطع، فقد كانت عبارة عن شواهد قبور وقد كُتِبت عليها بعض العبارات بألوان مختلفة!

انتفض البعض بينما البعض الآخر شعر بالحماسة لخوض تلك تجربة.

وقبل أن يرحل الممتعضون أوقفهم صاحب المحل قائلًا: انتظروا لحظة! لن يرحل أحدٌ منكم قبل أن يتذوق مخاوفه، لربما استطاع التغلب عليها.

ردَّ أحد الحضور وقد كان شابًا في مقتبل العمر: هل تناولي لتلك الحلوى الكئيبة هو ما سيجعلني أتغلب على خوفي؟ هذا هراء.

صفَّق الرجل لذلك الشاب: أُقَّدر شجاعَتَك تلك! ولكن ما المشكلة؟ جرِّب ولن تخسر شيئًا.

ثم اتجه بنظراته لكلِّ الحضور وتكلم: كلُّ شخصٍ لديه خوف يسيطرُ عليه ويعيقُه عن التقدم خطوة للأمام، والآن اختر خوفك وتناوله، خطوة قد تكلِّفك بضعة جنيهات إلا إنها ستدر عليك النفع مدى الحياة، فوراء كلِّ خوف بابٌ رائعٌ يطل على متعة أروع!

بدأَ الحضورُ يلتفتُ إلى الثلاجةِ مرةً أخرى وقد شعروا بالحماسة وبدأ كلٌ منهم يختار مخاوفه. تلك المخاوف المدونة على شواهد القبور،

وقد كُتِب عليها بعجينةِ السُّكر أسماء بعض المخاوف: (الفقر – الموت – المرض– الفقد – الظلام) وغيرها من المخاوف التي تسيطر على حياة البعض.

دقائق واقتربت منه فتاة تبدو في العشرينات، وقد كانت رائعة الجمال بعينيها الخضراوين وشعرها الأشقر وملابسها التي تدلُّ أنها من الطبقة الأرستقراطية، نظرت إليه بمرارةٍ: نسيت واحدًا من أهمِّ المخاوف!

ردَّ صاحب المحلِّ والفكرة المدعو "خليل العدوي" بترقب: وما هو؟

– الخوف من الحبِّ.

– ذلك الشيء الوحيد الذي لا يمكن التغلب عليه إلاّ من الداخل.

ثمّ أشار إلى قلبها وأكمل: يجب أن تنبع من هنا، فالحب لا يمكن هزيمته مهما حاولت بل على العكس بمحاولتك المقاومة ستخسر الكثير.

– ما الذي سأخسره؟

خليل وقد امتلأت عيناه بالدموع: الكثير: الوقت، السعادة، وربما تخسرين نفسك!

نظرت الفتاة بحزنٍ: وماذا سأفعل الآن؟

تحرك خليل بخطواتٍ هادئة إلى إحدى الثلاجات القريبة منه وأخرج منها قطعةً صغيرةً وقربها منها: ذلك هو ما تحتاجينه.

أمعنت الفتاة النظر في القطعة التي كُتِب عليها: "الخوف من التجربة"، ثم تساءلت بحيرةٍ: لِمَ هذه؟

- حياتنا عبارة عن مختبر كبير تجري فيه مجموعة من التجارب، البعض منها يصيب والبعض منها يخطئ، ولكن إذا لم تجرِ تلك التجارب فلن يتغير شيء ومع الوقت سيتقدم الجميع إلا أنتِ ستظلين واقفة مكانك لا تتحركين إلا للتراجع إلى الخلف، وأنتِ لا تزالين صغيرة، عيشي التجربة بحلوها ومرها، واستمتعي بحياتكِ يا فتاة!

ابتسمت الفتاة لخليل بسعادة: أشكركَ كثيرًا، وقبل أن أغادر هلا أجبتني على سؤال مهم؟ ما سرُّ تلك القطع؟ هل أنت ساحر؟

خليل ببساطة: بل على العكس، كلُّ ما في الأمر أنَّ الخوف أحيانًا قد يعيقك عن اتخاذ القرار السليم، ولذلك فكرت في تلك الفكرة، كي تكون هي الحجارة التي تحرك الماء الراكد للبعض ليبدأ في التساؤل والتفكير في تلك المخاوف بشكل إيجابي، إذا ما أراد علاجها سيفعل، وإذا لم يرد، فيكفي أنه قد واجه نفسه للمرَّة الأولى بتلك المخاوف، والمواجهة هي أول خطوة للعلاج.

غادرت الفتاة بعدما وعدته بلقاءٍ جديد. أما هو فجلس يتابع حركة البيع والشراء، وقد شعر بالسعادة فالفكرة قد نجحت. لاسيما مع الشباب، كان يتأمل الحاضرين عندما سقطت عيناه على الجريدة الموضوعة أمامه، تأمَّل التاريخ، ثمّ سرعان ما شعر بالصدمة وقد شحب وجهَه للغاية! أخذ مفاتيح سيارته بسرعة وغادر تاركًا المكان، مما أثار استغراب الحاضرين.

ظلَّ يسيرُ بسرعةٍ كبيرةٍ حتى وصل إلى المقابر، وهناك دلف إلى مقبرة عائلة المنصوري، وقف أمامه يتأمله بنظراتٍ مريرةٍ خاليةٍ من

الحياة خاصةً وتلك العبارة تزين شاهد القبر: الحب للشجعان وأنتَ كنت جبانًا.

ليُحدث ذاته بحزنٍ ومرارةٍ وقد سقطتْ دموعُه بغزارةٍ: كدتُّ اليوم أن أنسى ذكرى وفاتك يا فاطمة! مرَّت خمسة أعوام ولازلت على نفس إحساسي وقتها، ألعن نفسي مائة مرة في اليوم لأنني تركتك، ألعن خوفي الذي كبَّلني وقتها، اليوم صنعت كعكتك الأخيرة، تلك التي صنعتيها من أجلي ولم أفهم وقتها ماذا أردت أن تقولي..

*****

عاد بالذاكرة للوراء خمسة أعوام ماضية، عندما صنعت له فاطمة كعكة على شكل قبر ووضعت على الشاهد اسمها، لم يهتم هو للحظة أن يسألها عن السبب، بل تعجب من هيئة الكعكة وظلَّ يسخر منها كثيرًا، ثمّ تناولها بتلذذٍ بينما هي وقفت تتأمَّله بحسرةٍ، لتنتحر بعدها تاركةً إياه وحيدًا بعدما أرسلت له رسالة بأنها تحمَّلت منه الكثير ولكن بلا فائدة، هو كان يدَّعي القوّة، إلاَّ إنه كان جبانًا يخشى التعبير عن مشاعره، ولذلك سيكون عقابه أن يحيا بندمٍ لبقية حياته..

وأنهت خطابها بعبارة: "متّ حين مات الحب، لم يكن الذنب ذنبي ولا ذنب الموت، لكنه ذنب من يختار أن يعيش جبانًا دون حب."

لازالت تلك العبارات تدور في رأسه وهو يُمَنِي نفسَه أن تتحقق تلك الأمنية المستحيلة وتعود للحياة مرة أخرى، لكي يخبرها أنه يهيم بها عشقًا، ولكن الحياةَ لا تعطي الفرصة مرتين. الآن فات الأوان. الجميع يخبره أن ينسى ولكن كيف ينسى وشاهد القبر على إثمه وخطيئته شهيد؟